

الشَّفاعة في القرآن الكريم



www.balagh.com

الشَّفاعة في المعنى الاصطلاحي العقدي عند المسلمين مرتبطة بكرامة الله لبعض أوليائه فيما يريد أن يُطهره من فضلهم في الآخرة، فيُشفَّعهم في من يريد المغفرة له أو يريد رفع درجته عنده. وقد وردت كلمة (شفع) باشتقاقاتها اللغوية 26 مرة في القرآن الكريم، وباستعراضها نجد أن ما له علاقة بالمعنى الاصطلاحي يشمل 24 آية، بينما قوله تعالى: (مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً لَّهِ يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللّٰهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا) (النساء/ 85). فقد استعملت الكلمة هنا في المعنى اللغوي، ولها ارتباط بالوساطات التي كان يعرضها بعض المسلمين لبعض المنافقين أو المشركين في العهد النبوي، وهكذا بالنسبة إلى قوله تعالى: (وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ) (الفجر/ 3)، والتي يشير بها إلى نوع من الصلاة، أو يوم من أيام السنة، أو غير ذلك مما لا علاقة له بالمعنى الاصطلاحي الذي نبحت فيه. - نفي الشفاعة الوهميَّة: ومن يتتبع تلك الآيات ويستقرؤها، يلاحظ أنها لا تتحدَّث عن الشفاعة بقصد إثبات وجودها، بل تتحدث عنها بشكل سلبي كما يلي: 1- نفي الشفاعة: (أَزِفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّنْ قَيْلٍ أَمْ يَأْتُوْنَ يَوْمَ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خُلَاصَةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (البقرة/ 254). 2- نفي الشفاعة عن الشفعاء الوهميين الذين كان المشركون يدعون لهم تلك الكرامة: (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَنَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكَلْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ

وَرَأَى ظُهُورَكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَن زَوْجُهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (الأنعام / 94). 3- بيان عدم تأثير الشفاعة: (وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ) (البقرة / 123). 4- لا شفاعة إلا بإذن الله ورضاه: (هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ) (البقرة / 255)، (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ) (الأنبياء / 28). - إثبات الشفاعة بشروطها: بالطبع، فإنَّ ما سبق لا يعني نفي الشفاعة في الآخرة بشكل مطلق، إذ أثبتت الآيات نحواً من الشفاعة ضمن قانون معين، ولكنَّ اهتمام الآيات انصبَّ على معارضة فكرة الشفاعة بالصورة التي كانت مطروحة من قبل المشركين الذين كانوا يعتقدون أن أصنامهم تملك ذلك الامتياز، وأنَّهم يتقربون إليها بالعبادة والطاعة وتقديم القرابين، لكي تكون لهم الخطوة عندها في تحقيق أمانهم كلَّها. والمشركون وإن لم يؤمنوا بالآخرة، إلا أنَّهم كانوا يواجهون النبي (ص) بدعوى أنَّه لو افتُرِض وقوعها، فإنَّ تلك الأصنام ستشفع لهم وتخلِّصهم من عذاباتها. ومن جهة أخرى، فإنَّ القرآن الكريم لم يحدِّد الشفعاء في الآخرة، بل ذكر منهم الملائكة، كما ذكر بعض صفاتهم. - شفاعة بعد الإذن: ومن مجمل الآيات القرآنية التي تحدَّثت عن الشفاعة، فإنَّنا نجد تأكيد سبق الإذن والرضا الإلهي لأيِّ شفاعة، وهذا يعني أنَّ شفاعة الشافعين لا تتعارض مع الحكم الإلهي على عباده، بحيث إذا أراد الله أنزال العقوبة بهم، فيتدخل الشفعاء ليغيِّروا الإرادة الإلهية، ويحوِّلوا الغضب الإلهي إلى رضا، بل إنَّ سبحانه يحكم - وفق رحمته - باستحقاق فئات من الناس الشفاعة، وحينئذ يشفع الشفعاء فيهم وفق الإذن الإلهي المسبق لهم بذلك، ووفق معرفة الشفعاء بقانون الشفاعة ومعاييرها وشروطها التي وضعها الله سبحانه، وذلك تكريماً للشفعاء من جهة، وتحسيناً لأوضاع تلك الفئات، برفع درجاتهم في الجنة، أو في التجاوز الإلهي عن بعض ما ارتكبه من معاصي، من جهة أخرى. - مبالغة ومخالفة: وقد عمل الخطاب الديني الإسلامي في بعض مواقفه على تقديم صورة مشوِّشة أو قاصرة حول الشفاعة، أدَّت إلى صورتها بالشكل السابق، كما أدَّت إلى تقديم الشفاعة على العمل من حيث المرتبة والأهمية، على الرغم من كل التركيز القرآني على الإيمان والعمل كأساسين للنَّجاة في الآخرة، في الوقت الذي غلبت المصِّفة السلبية على الحديث عن الشفاعة. ونتيجة تلك الصورة المعكوسة، جاءت المبالغة عند البعض في الركون إلى الشفاعة في الآخرة، دون الاعتناء بالقانون الإلهي الذي ينظِّم العلاقة بين الله والشفيع

والمشفّع فيه، وهو ما يخالف صريح الآيات السابقة، وصريح الأحاديث الواردة عن النبي وآله في هذا الخصوص، من قبيل ما جاء في خطبة النبي (ص) الأخيرة حيث قال: "أمّا إنّه ليس بيننا وبين أحد من عباده شيء يعطيه به خيراً أو يدفع به عنه شراً إلا العمل، أمّا إنّه لا ينجي إلا عمل مع رحمة. ولو عصيتُ لهويتُ". فإِنَّ هو الذي جعل لنبيه الشفاعة للمذنبين، ولكن النبي يريد أن يقول للناس: انطلقوا مع العمل وانتظروا رحمة الله وشفاعته، ولا تتجروا على ترك العمل والابتعاد عن الخطّ المستقيم. لأنكم تقولون سيشفع النبي لنا. وكذلك فيما رواه أبو بصير قال: (دخلت على أم حميد أعزبها بأبي عبد الله - الإمام جعفر الصادق (ع) وهي زوجته - فبكت وبكيت لبكائها، ثمّ قالت: يا أبا محمد لو رأيت أبا عبد الله (ص) عند الموت لرأيت عجبا، فتح عينيه ثمّ قال: اجمعوا لي كلّ من بيني وبينه قرابة، قالت: فلم نترك أحداً إلا جمعناه، قالت: فنظر إليهم ثمّ قال: إنّ شفاعتنا لا تنال مستخفاً بالصلاة). وقد أدّت القراءة الخاطئة لحقيقة الشفاعة أيضاً إلى دفع البعض للسعي نحو تطوير علاقة خاصة بالشفعاء والتّقرب إليهم بأنحاء القربات، لا بدافع الاقتداء والاهتداء، بل أملاً في نيل شفاعتهم، ما أوجد فرقاً شاسعاً بين السلوك العام لأولئك الناس، وسيرة الشفعاء الذين يمثّلون القمّة في الإيمان والعمل الصالح والخلق القويم. - نتائج مستخلصة: بمطالعة الآيات القرآنيّة التي تحدّثت عن الشفاعة يمكن استخلاص النتائج التالية: - أكّد القرآن الكريم أصل الشفاعة في الآخرة، وذكر الملائكة كشفعاء، كما ذكر بعض صفات الشفعاء. - الحديث القرآني عن الشفاعة في مجمله حديث سلبي، وذلك لمواجهة معتقدات المشركين. - شفاعّة الشافعين لا تمثّل معارضةً للحكم الإلهي، ولا تغييراً لإرادته في إنزال العقوبة بالعاصين. - من الخطأ المبالغة في الركون إلى الشفاعة دون الاعتناء بالقانون الإلهي الذي ينظّم العلاقة بين الله والشفيع والمشفّع فيه.